الظلم الاجتماعي والرؤية الأخلاقية

في كل ماكتبت سميرة عزام، كان الحسّ الأخلاقي يرشح في الكل والتفاصيل، واشياً بلا موارية بنزعة اخلاقية طاغية، وكاشفاً بلا لبس عن تعاطف حميم مع كل ما هو إنساني. وقد يوغل التعاطف الحميم وتعلو النزعة الانسانية حتى يطفو القول الإنساني صافياً، وكأنه في صفائه يرفض العسف المعاش، ويرجم عالم الشر، ويتناءى عن مملكة الإثم، وينادي بمملكة طاهرة اخرى، فيدعو في البداية والنهاية إلى عالم معمور بالمحبة والنقاء، او إلى عالم محكوم بأقانيم النعمة والمحبة والتآخي.

إذا عدنا إلى قصص سميرة عزام نجد برهان الدعوة الأخلاقية حاضراً، او نجد ان هذه الدعوة حاضرة في بدايات القصص ونهاياتها، فكأن الكاتبة لم تكن تبني قصصها إلا لتطلق فيها مركّباتها التبشيرية المتعددة. نبدأ، في هذا الإطار، بقصة: «بائع الصحف»؛ وهي قصة تروي مأساة يومية، وتحكي عن مسار فتى، يشير إلى ذاته بصوته وبانضباط ساعات بيعه، فتى يحبه الآخرون ويتقن مهنته، إلى ان يأخذه الموت في حادث سيارة، فيصبح موته خبراً في صحيفة يبيعها فتى آخر، وإعلاناً يشير إلى عاديّة الموت ويوميته، وإلى مسار الحياة التي تستمر دون النظر إلى طبيعة «الفتى» المتحرّك فيها. قصة تسخر من الموت والحياة، او ترسم الموت والحياة في سخرية سوداء؛ حيث يصبح القدر هو الساخر والانسان موضوع السخرية. تخبر هذه القصة عن سمة اولى عند سميرة عزام، وهذه السمة هي: التعامل مع الانسان من وجهة نظر العطف والتعاطف، الشفقة والإحسان، فكأننا بها تطلق جوهر الخير ليحتضن جوهر الانسان، دون النظر إلى الشرط الاجتماعي الذي يدور فيه الجوهران. هذا الموقف هو الذي ندعوه بالموقف الأخلاقي في التعامل مع الواقع الاجتماعي. مع ذلك، فإن هذا الموقف لا يتّضح إلا إذا عرفنا جملة المركّبات التي تكوّنه كموقف، فما هي سمات الموقف الأخلاقي في الكتابة القصصية؟.

لما كانت الايديولوجيا الأخلاقية ترشح في الكتابة القصصية، فإنه يتعينّ عليها أن تعلن في تجلّياتها عن كل مركّبات تلك الايديولوجيا؛ والمركّبات واضحة يمكن إرجاعها إلى العناصر التالية: ١ ــ الانسان، من حيث هو فرد، هو بداية الكتابة ونهايتها؛ ٢ ــ صراع العالم هو صراع بين الخير والشر؛ ٣ ــ ينزع العالم، رغم شروره، إلى الخير بوجه عام؛ ٤ ــ يرجع فساد العالم إلى العطب الأخلاقي اساساً، وإلى ابتعاد الأفراد عن القيم الأخلاقية الخيّرة؛ ٥ ــ لا يقوم صلاح العالم على العنف بل على الحوار المسالم والتفاهم المحكوم بالنيّات الحسنة.

تحتضن قصص سميرة المركّبات الأخلاقية السابقة. ويبقى هذا الحكم صحيحاً على الرغم من بعض المواقف المحدودة التي تقرّب الكاتبة إلى مواقع فكرية اكثر وضوحاً، ويعود هذا الاقتراب المحدود إلى تنامي التجربة الاجتماعية لدى الكاتبة، وإلى اهتمامها، الذي لا شك فيه، بالقضية الوطنية الفلسطينية. لكن هذا الاقتراب، في اسبابه، لا يثلم المدار الأخلاقي العام الذي دارت فيه الكتابة القصصية. لهذا كان من الطبيعي ان يظل الموقف الأخلاقي لصيقاً بكل اعمال سميرة عزام. وسنقترب الآن من بعض القصص